

## سُورَةُ الرَّوْمِ

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ غَلَبَتِ الرَّوْمُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِهِ وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٦﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي . وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿الم \* غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ قال غلبت وغلبت ، قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المهلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب ؛ فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم ؛ فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتكم كان لكم كذا وكذا ؛ فجمع أجل خمس سنين ، فلم يظهرها ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال «الاجعلتها إلى دون - أراه قال العشر -» قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ؛ ثم ظهرت الروم بعد . قال : فذلك قوله ﴿الم \* غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - إلى قوله - وهو العزيز الرحيم﴾ هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو ، عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان الثوري به . وقال الترمذي : حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب . ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق الصنعاني عن معاوية بن عمرو به . ورواه ابن جرير : حدثنا محمد بن المنثري ، حدثنا محمد بن سعيد أو سعيد الثعلبي ، الذي يقال له أبو سعد من أهل طرسوس ، حدثنا أبو إسحاق الفزاري فذكره ، وعندهم قال سفيان : فبلغني أنهم غلبوا يوم بدر .

[حديث آخر] قال سليمان بن مهران الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين ، الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم ؛ أخرجاه . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا المحاربي عن داود بن أبي هند ، عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت ﴿الم \* غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ قالوا : يا أبا بكر إن صاحبك يقول أن الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟ قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ، ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال «ما بضع سنين عندهم؟» قالوا : دون العشر . قال «أذهب فزايدهم ، وازدد ستين في الأجل» قال : فما مضت الستتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿الم \* غلبت الروم - إلى قوله تعالى - وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ .

[حديث آخر] قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عمر الكوفي ، حدثنا مؤمن عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال : لما نزلت ﴿الم \* غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ قال المشركون لأبي بكر : ألا ترى إلى ما يقول صاحبك يزعم أن الروم تغلب فارس ؟ قال : صدق صاحبي . قالوا : هل لك أن نخاطرك ؟ فجعل بينه وبينهم أجلا ، فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس ، فبلغ ذلك النبي ﷺ وساء ذلك وكرهه ، وقال لأبي بكر «ما دعاك إلى هذا؟» قال : تصديقا لله ورسوله . قال وتعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله إلى

بضع سنين» فاتاهم أبو بكر فقال : هل لكم في العود ، فإن العود أحمد ؟ قالوا : نعم ، فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس ، وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية ، فجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال (تصدق به) .

[حديث آخر] قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبي أوس ، أخبرني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت ﴿الم﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون ﴿ في بضع سنين ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يجيئون ظهور الروم عليهم ، لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس ، لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ، ولا إيمان يبعث ، فلما أنزل الله هذه الآية ، خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الم﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون ﴿ في بضع سنين ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر : فذاك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ؛ فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر : كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه ؟ قال : فسموا بينهم ست سنين ، قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبي بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال : فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين ، قال : لأن الله يقول في بضع سنين ، قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذي ، ثم قال : هذا حديث حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد .

وقد روي نحو هذا مرسلًا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم ، ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود في تفسيره حيث قال : حدثني حجاج عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال : كان في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال ، فدعاها كسرى فقال : إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً واستعمل عليه رجلاً من بنيك ، فأشير علي أيهم استعمل ؟! فقالت : هذا فلان وهو أروغ من ثعلب ، وأحذر من صقر ، وهذا فرخان وهو أفند من سنان ، وهذا شهريز وهو أحلم من كذا ، تعني أولادها الثلاثة ؛ فاستعمل أيهم شئت ، قال : فإني استعملت الحلبي ، فاستعمل شهريز فسار إلى الروم بأهل فارس ، فظهر عليهم فقتلهم وخرّب مدائنهم ، وقطع زيتونهم ، قال أبو بكر بن عبد الله : فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال : أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك لورأيتها لرأيت المدائن التي خربت والزيتون الذي قطع ، فأنت الشام بعد ذلك فرائته . قال عطاء الخراساني : حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلاً يدعى قطمة بجيش من الروم ، وبعث كسرى شهريز فالتقى بين أذرع وبصرى ، وهي أدنى الشام إليكم ، فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ، وفرحت بذلك كفار قريش ، وكرهه المسلمون ، قال عكرمة : ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿الم﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض - إلى قوله - ينصر من يشاء ﴿ فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ، فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم ، فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ ، فقام إليه أبي بن خلف فقال : كذبت يا أبا فضيل ، فقال له أبو بكر : أنت أكذب يا عدو الله ؛ فقال : أنا حبلك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت ، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، فزايده في الخطر وماده في الأجل ﴿ فخرج أبو بكر فلقى أيبا ، فقال : لعلك ندمت ؟ فقال : لا ، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل ، فأجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلت ، فظهرت الروم على فارس قبل ذلك ، فغلبهم المسلمون . قال عكرمة : لما أن ظهرت فارس على الروم ، جلس فرخان يشرب وهو أخو شهريز ، فقال لأصحابه : لقد رأيت كائي جالس على سرير كسرى ، فبلغت كسرى ، فكتب كسرى إلى شهريز : إذا أتاك كتابي فابعث إلي برأس فرخان ، فكتب إليه شهريز : أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان له نكاية وصوت في العدو ، فلا تفعل ؛ فكتب إليه : إن في رجال فارس خلفاً منه ، فعجل إلي برأسه . فراجعه ، فغضب كسرى فلم يجبه ، وبعث بريدا إلى أهل فارس : إني قد نزعتم عنكم شهريز واستعملت عليكم فرخان ، ثم رفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة ، فقال : إذا ولي فرخان الملك وانتقاد له أخوه ، فأعطه هذه ، فلما قرأ شهريز الكتاب قال : سمعاً وطاعة ،

ونزل عن سريريه وجلس عليه فرخان ، ورفع إليه الصحيفة اللطيفة ، فلما قرأها قال : اثنتوني بشهرياز ، وقدمه ليضرب عنقه ، فقال شهريراز لا تعجل حتى أكتب وصيتي ، قال : نعم ، فدعا بالسفط فأعطاه الصحائف ؛ فقال : كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد ، فرد الملك إلى أخيه شهريراز ، وكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم إن لي إليك حاجة لا تحملها البرد ، ولا تحملها الصحف فالقني ولا تلقني إلا في خمسين رومياً ، فإني لا ألك إلا في خمسين فارسياً . فأقبل قيصر في خمسمائة رومي ، وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق ، وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونُه بأنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ، ثم بسط لها والتقىا في قبة ديباج ضربت لها ، مع كل واحد منها سكين فدعيا ترجماناً بينهما ، فقال شهريراز : إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتنا ، وإن كسرى حسدنا وأراد أن يقتل أخي فأبيت ، ثم أمر أخي أن يقتلني فقد خلعتنا جميعاً ، فنحن نقاتله معك . قال : قد أصبتنا ، ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين ، فإذا جاوز اثنين فشا ، قال : أجل ، فقتلا الترجمان جميعاً بسكينيهما ، فأهلك الله كسرى ، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ففرح والمسلمون معه . فهذا سياق غريب وبناء عجيب . ولنتكلم عن كلمات هذه الآيات الكريمات ، فقوله تعالى : ﴿ اَلَمْ يَكُن لِّلرَّوْمِ قَد تَّقَدَّمُ الْكَلَامَ عَلَى الْخُرُوفِ الْمَقْطَعَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَأَمَّا الرُّومُ فَهَمَّ مِنْ سَلَاةِ الْعِيصِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهَمَّ ابْنَاءُ عَمِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَيَقَالُ لَهُمْ بَنُو الْأَصْفَرِ ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ الْيُونَانِ ، وَالْيُونَانُ مِنْ سَلَاةِ يَابُثَ بْنِ نُوحٍ ابْنَاءُ عَمِّ التُّرْكَ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْكُرُوكِبَ السَّيَّارَةَ السَّبْعَةَ ، وَيَقَالُ لَهَا الْمُنْجَرَّةُ ، وَيَصِلُونَ إِلَى الْقَطْبِ الشَّمَالِيِّ ، وَهَمَّ الَّذِينَ أُسْسُوا دِمَشْقَ ، وَبَنُوا مَعْبَدَهَا ، وَفِيهِ مَحَارِيبٌ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ، فَكَانَ الرُّومُ عَلَى دِينِهِمْ إِلَى بَعْدِ مَبْعَثِ الْمَسِيحِ بِنَحْوِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكَانَ مِنْ مَلِكِ مَنَّهُمُ الشَّامُ مَعَ الْجَزِيرَةِ يُقَالُ لَهُ قَيْصَرٌ ، كَانَ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ النَّصَارَى مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ قَسْطَنْطِينَ بْنِ قَسْطُسٍ وَأُمُّهُ مَرْيَمُ الْهَيْلَانِيَّةُ الْغَنْدَقَانِيَّةُ مِنْ أَرْضِ حِرَانَ ، كَانَتْ قَدْ تَنَصَّرَتْ قَبْلَهُ ، فَدَعَتْهُ إِلَى دِينِهَا ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِيلَسُوفًا فَتَابَعَهَا ، يُقَالُ تَقِيَّةٌ ، وَاجْتَمَعَتْ بِهِ النَّصَارَى وَتَنَاطَرُوا فِي زَمَانِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرْيُوسَ ، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَثِيرًا مَتَشَرًّا مَتَشْتًا لَا يَنْضَبُ ، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ مَعَ جَمَاعَتِهِمْ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشْرٍ أَسْقَفًا ، فَوَضَعُوا لِقَسْطَنْطِينَ الْعَقِيدَةَ ، وَهِيَ الَّتِي يَسْمُونَهَا الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيرَةُ ، وَوَضَعُوا لَهُ الْقَوَانِينَ يَعْنُونَ كِتَابَ الْأَحْكَامِ مِنْ تَحْرِيمِ وَتَحْلِيلِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَغَيَّرُوا دِينَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ ، فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَاعْتَاضُوا عَنِ السَّبْتِ بِالْأَحَدِ ، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ وَأَحْلَوْا الْخَنْزِيرَ ، وَاتَّخَذُوا أَعْيَادًا أَحَدَثُوهَا كَعِيدِ الصَّلِيبِ وَالْقُدَّاسِ وَالْغَطَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْبُوعَايِثِ وَالشَّعَابِينِ ، وَجَعَلُوا لَهُ الْبَابَ ، وَهُوَ كَبِيرُهُمْ ، ثُمَّ الْبِتَارِكَةَ ، ثُمَّ الْمَطَارَنَةَ ، ثُمَّ الْأَسَاقِفَةَ وَالْقَسَاقِسَةَ ، ثُمَّ الشَّمَامَسَةَ ، وَابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّةَ ، وَبَنَى لَهُمُ الْمَلِكُ الْكِنَانِيُّ وَالْمَعَابِدُ ، وَأَسَّسَ الْمَدِينَةَ الْمُنَسُوبَةَ إِلَيْهِ وَهِيَ الْقَسْطَنْطِينِيَّةُ ، يُقَالُ أَنَّهُ بَنَى فِي أَيَّامِهِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ كَنِيسَةٍ ، وَبَنَى بَيْتَ لَحْمٍ بَثَلَاثِ مَحَارِيبَ ، وَبَنَتْ أُمُّ الْقَمَامَةِ ، وَهِيَ أُمُّ الْمَلِكِيَّةِ يَعْنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ «إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالْغُرُضُ أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ ، كُلِّهَا هَلَكَ قَيْصَرُ خَلْفَهُ آخِرَ بَعْدِهِ حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ هِرْقَلُ ، وَكَانَ مِنْ عَقْلَاءِ الرِّجَالِ ، وَمِنْ أَحْزَمِ الْمُلُوكِ وَأَدَاهَاهُمْ ، وَأَبْعَدُهُمْ غُورًا ، وَأَقْصَاهُمْ رَايَا ، فَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ فِي رِيَاةٍ عَظِيمَةٍ وَأَهْبَةِ كَثِيرَةٍ ، فَنَاوَاهُ كَسْرَى مَلِكُ الْفَرَسِ وَمَلِكُ الْبِلَادِ كَالْعِرَاقِ وَخِرَاسَانَ وَالرِّيَّ وَجَمِيعَ بِلَادِ الْعَجَمِ ، وَهُوَ سَابُورُ ذُو الْأَكْتِفِ ، وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُ أَوْسَعُ مِنْ مَمْلَكَةِ قَيْصَرَ ، وَهُوَ رِيَاةُ الْعَجَمِ ، وَحِمَاةُ الْفَرَسِ ، وَكَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ النَّارَ ، فَتَقَدَّمَ عَنْ عِكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ : بَعَثَ إِلَيْهِ نَوَابِيهِ وَجَيْشَهُ فَقَاتَلُوهُ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّ كَسْرَى غَزَاهُ بِنَفْسِهِ فِي بِلَادِهِ ، فَفَقِهَهُ وَكَسَرَهُ وَقَصَرَهُ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ سِوَى مَدِينَةِ قَسْطَنْطِينِيَّةٍ ، فَحَاصَرَهُ بِهَا مَدَّةً طَوِيلَةً ، حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ النَّصَارَى تَعْظُمُهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ كَسْرَى عَلَى فَتْحِ الْبِلَادِ ، وَلَا أَمَكَنَهُ ذَلِكَ لِحَصَانَتِهَا لِأَنَّ نِصْفَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْبَرِّ ، وَنِصْفَهَا الْآخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَحْرِ ، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمُ الْمِيرَةُ وَالْمُدُّ مِنْ هُنَاكَ ، فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ ، دَبَّرَ قَيْصَرُ مَكِيدَةً ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ خَدِيمَةً ، فَطَلَبَ مِنْ كَسْرَى أَنْ يَقْلَعَ مِنْ بِلَادِهِ عَلَى مَالٍ يَصَالِحُهُ عَلَيْهِ وَيَشْتَرِطُ عَلَيْهِ مَا شَاءَ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنْ مَلُوكِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَأَقْمِشَةٍ وَجَوَارٍ وَخَدَامٍ وَأَصْنَافٍ كَثِيرَةٍ ، فَطَاوَعَهُ قَيْصَرُ وَأَوْهَمَهُ أَنْ عِنْدَهُ جَمِيعَ مَا طَلَبَ ، وَاسْتَقْلَقَ عَقْلَهُ لِمَا طَلَبَ مِنْهُ مَا طَلَبَ ، وَلَوْ اجْتَمَعَ هُوَ وَإِيَّاهُ لَعَجَزَتْ قُدْرَتُهُمَا عَنْ جَمْعِ عَشْرِهِ ، وَسَأَلَ كَسْرَى أَنْ يَمَكِّنَهُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَأَقَالِيمِ مَمْلَكَتِهِ ، لِيَسْمَى فِي تَحْصِيلِ ذَلِكَ مِنْ ذَخَائِرِهِ وَحَوَاصِلِهِ وَدَفَائِنِهِ ، فَاطْلُقَ سِرَاحَهُ ، فَلَمَّا عَزَمَ قَيْصَرُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَدِينَةِ قَسْطَنْطِينِيَّةٍ جَمَعَ أَهْلَ مَلْتَهُ وَقَالَ : إِنِّي خَارِجٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أَمْرَتُهُ فِي جَنْدٍ قَدْ عَيْتَهُ مِنْ جَيْشِي ، فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْكُمْ قَبْلَ الْخَوْلِ ، فَأَنَا مَلِكُكُمْ ، وَإِنْ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ

قبلها ، فأنتم بالخيار : إن شئتم استمررتم على بيعتي ، وإن شئتم وليتم عليكم غيري ؛ فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً ، ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط هذا ، وكسرى نجيم علي القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي ملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده وركبه على حماره ، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبت فخذ ؛ فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، واشتد حنقه على البلد ، فجد في حصارها بكل ممكن ، فلم يقدر على ذلك ؛ فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ؛ فلما علم قيصر بذلك ، احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة ، وركب في بعض الجيش ؛ وأمر بأعمال من التين والبعر والروث ؛ فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً ، ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر ؛ فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك ؛ فركبوا في طلبهم فشترت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ؛ ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية ، فكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون ، لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت الروم ، وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ، ونساءهم ؛ فكان هذا من غلب الروم لفارس ؛ وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز ، وقال مجاهد : كان ذلك في الجزيرة ، وهي أقرب بلاد الروم من فارس ، والله أعلم .

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع ، فإن (البضع) في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع ؛ وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مناجحة ﴿الم﴾ \* غلبت الروم ﴿الا﴾ احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿الله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده ، فبني على الضم لما قطع المضاف ، وهو قوله قبل عن الإضافة ونويت ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس ، وكانت نصره الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء ، كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم . وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري من حديث الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ، ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وأنزل الله ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ .

وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . قاله عكرمة والزهري وقتادة وغير واحد . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس ، شكراً لله تعالى ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصرى ؛ فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صحريين حرب الأموي في جماعة من كبار قريش ، وكانوا بغزة ، فجاءهم إليهم فجلسوا بين يديه . فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه ، فقال أبو سفيان ؛ فوالله لولا أن يأتروا علي الكذب لكذبت ، فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها ، يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ، لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعبت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي له إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم ، والأمر في هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ؛ لأن الروم

أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى - إلى قوله - ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ . وقال تعالى هنا ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثني أسيد الكلابي قال : سمعت العلاء بن الزبير الكلابي يحدث عن أبيه قال : رأيت غلبة فارس الروم ، ثم رأيت غلبة الروم فارس ثم رأيت غلبة المسلمين فارس ، والروم كل ذلك في خمس عشرة سنة .

وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي بحكم الله في كونه ، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة كان أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة ، قال الحسن البصري : والله ليلبغ من أحدهم بدنياء أنه يقبل الدرهم على ظفره ، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

أَوَّلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

أَوَّلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا فِي الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظَلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السُّوَاىَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى منها على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراجه بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة ، فاعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكارفون ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم ، فقال تعالى : ﴿ أولم يسيرا في الأرض ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ، ولهذا قال ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ أي كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أي المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طويلاً ، فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل لهم من العذاب والنتكال ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها ، وما ذلك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات وكانوا بها يستهزون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ وعلى هذا تكون السواى منصوبة مفعولاً لأساءوا ؛ وقيل بل المعنى في ذلك ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى ﴾ أي كانت السواى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزون . فعلى هذا تكون السواى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ، ونقله عن ابن عباس وقتادة ، ورواه ابن أبي حاتم عنها وعن الضحاك بن مزاحم ، وهو الظاهر - والله أعلم - لقوله ﴿ وكانوا بها يستهزون ﴾ .

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ إِلَيْهِ ثُمَّ يُرْجِعُهُمْ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَدُونَ بِقُرُوفِهِمْ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ

### فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي كما هو قادر على بدهته فهو قادر على إعادته ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله . ثم قال ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ قال ابن عباس : يبأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، وفي رواية يكتب المجرمون ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ما شفعت فيهم الألهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ، ولهذا قال تعالى : ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون﴾ قال مجاهد وقاتة : يعمون . وقال يحيى بن أبي كثير : يعني سماع الغناء ؛ والخبرة أعم من هذا كله ، قال المعراج :

فالحمد لله الذي أعطى الحبر موالى الحق إن المولى شكر

فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُسَمُّهُ وَحِينَ نَتَّصِحُّونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ؛ وعند الصباح وهو إفسار النهار بضياؤه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التمجيد ، فقال تعالى : ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ، ثم قال تعالى : ﴿وعشيا وحين تظهرون﴾ فالعشاء هو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا ، فالتق الاصباح ، وجاعل الليل سكنا ، كما قال تعالى : ﴿والنهار إذا جلاها﴾ والليل إذا يغشاها﴾ وقال تعالى : ﴿والليل إذا يغشى﴾ والنهار إذا تجلَّى﴾ وقال تعالى : ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾ والآيات في هذا كثيرة . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا زياد بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله الذي وفي ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون» وقال الطبراني : حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث بن سعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن بن البيهقي عن أبيه ، عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال «ومن قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، الآية بكاملها أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته» إسناد جيد ورواه أبو داود في سننه .

وقوله تعالى : ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى : ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ كقوله تعالى : ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون - إلى قوله - وفجرنا فيها من العيون﴾ وقال تعالى : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج - إلى قوله - وأن الله يبعث من في القبور﴾ وقال تعالى : ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا - إلى قوله - لعلكم تذكرون﴾

ولهذا قال مهنا ﴿وكذلك نخرجون﴾ .

وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ شَرٌّ مَبْتَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ، أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثم إذا أنتم بشر تتشرون﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ، ثم صار عظماً شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسحان من أقدارهم وسيرهم وسخرهم وصرهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالوا : حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك» ورواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي خلق لكم من جنسكم إنثاءً تكون لكم أزواجاً ﴿لتسكنوا إليها﴾ كما قال تعالى : ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إنثاهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهم مودة وهي المحبة ، ورحمة وهي الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الاتفاق أو للالفة بينها وغير ذلك ﴿إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وَمِن آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسَافِرَ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْبَغَاؤَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٢﴾

وَمِن آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنْبَغَاؤَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خلق السموات والأرض﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها ، وسقوف أجرامها ، وزهارة كواكبها ونجومها الثابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها ، وما فيها من جبال وأودية وبحار ، وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى : ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ يعني اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكروور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صفالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم وهي حلاهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وقم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لا تشبه أخرى ، ولو توافقت جماعة في صفة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ﴿أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب . وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب

والأسفار في النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يعون . قال الطبراني : حدثنا حجاج بن عمران السدوسي ، حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن علاقة ، حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال «قل اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حي قيوم يا حي يا قيوم ، أنم عيني وأهدى لي ليالي» فقلتها ، فذهب عني .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم

دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : ﴿ومن آياته﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يريكُم البرق خوفًا وطمعًا﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ، ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ كقوله تعالى : ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي من الأرض ، كما قال تعالى : ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون أن لبسنا إلا قليلاً﴾ وقال تعالى : ﴿فإنما هي زجرة واحدة \* فإذا هم بالساهرة﴾ وقال تعالى : ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ .

وَلَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهْفٍ قَانِتُونَ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ

الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى : ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي ملكه وعبده ﴿كل له قانتون﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً . وفي حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً «كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة» وقوله ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداية ، والبداة عليه هينة ؛ وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخاري : حدثنا أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه له يعيدني كما بدأتي ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» انفرد بإخراجه البخاري ، كما انفرد بروايته أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به . وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة : حدثنا أبو يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله .

وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفي عن ابن عباس : كل عليه هين ؛ وكذا قال الربيع بن خثيم ، ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير في قوله ﴿وهو أهون عليه﴾ إلى الخلق ، أي وهو أهون على الخلق . وقوله ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن

جرير . وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :  
 إذا سكن الغدير على صفاء      وجنب أن يحركه النسيم  
 يرى فيه السماء بلا امتراء      كذلك الشمس تبدو والنجوم  
 كذلك قلوب أرباب التجلي      يرى في صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، الحكيم في أقواله وأفعاله شراً وقدرأ ، وعن مالك في تفسيره المروي عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿وله المثل الأعلى﴾ قال : لا إله إلا الله .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْتَكُمْ فَاتَّعَرَفْتُمْ سَوَاءً  
 تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ  
 بِغَيْرِ عِلْمٍ مِّنْ يَّهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٩﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجامعين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء﴾ أي يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجاز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له ؛ والمعنى إن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ وهذا كقوله تعالى : ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب ؟ فهم يأنفون من البنات ، وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر ، وهكذا في المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾ .  
 قال الطبراني : حدثنا محمود بن الفرج الأصفهاني ، حدثنا إسماعيل بن عمرو الجلي ، حدثنا حماد عن شعيب عن جبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يلي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى : ﴿هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بل اتبع الذين ظلموا﴾ أي المشركون ﴿أهواءهم﴾ أي في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالتهم ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فَأَقْرَعْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ

اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَانْقُورُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
 وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤٠﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذي هداك الله لها وكملمها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . وفي الحديث «إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالهم الشياطين عن دينهم» وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خيراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون : هو خير على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلية المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبيرة ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لدين الله ، وقال البخاري : قوله ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ لدين الله ، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام .

حدثنا عبدان : أخبرنا عبد الله ، أخبرنا يونس عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول «فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به . وأخرجه أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة ؛ فمنهم الأسود بن سريع التميمي .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس عن الحسن بن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفراً ، فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية؟» فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال «لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها» ورواه النسائي في كتاب السير عن زياد بن أيوب عن هشيم ، عن يونس وهو ابن عبيد عن الحسن البصري به . ومنهم جابر بن عبد الله الأنصاري . قال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن بن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً» .

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي . قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين ؛ فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم» أخرجه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس اليشكري عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس مرفوعاً بذلك .

وقد قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا حماد يعني ابن سلمة ، أنبأنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال : أتى علي زمان وأنا أقول : أولاد المسلمين مع المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين ، حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين ؛ فقال «الله أعلم بما كانوا عاملين» . قال : فلقيت الرجل فأخبرني ، فأمسكت عن قولي .

ومنهم عياض بن حمار المجاشعي . قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته «إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ما علمني في يومي هذا : كل ما نحلته عبادي حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإني أنزلت عليهم فأصلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان ؛ ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً ، فقلت : رب إذا يثلغ رأسي فیدهه خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق فسنفق عليك ، وابعث جيشاً نبعت خمسة مثله ، وقاتل بين أطاعك من عصاك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل نبي قرير مسلم ،

ورجل عفيف متعفف ذو عيال - قال - وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ، والحائن الذي لا يخفي له طمع وإن دق إلا خانته ، ورجل يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخيل والكذاب والشظير الفحاش . انفراد بإخراجه مسلم ، فرواه من طرق عن قتادة به .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي التمسك بالشريعة والفترة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فهذا لا يعرفه أكثر الناس ، فهم عنه ناكبون ، كما قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ منيين إليه ﴾ قال ابن زيد وابن جريج : أي راجعين إليه . ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ، ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ، ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه . قال ابن جرير : حدثني يحيى بن واضح ، حدثنا يونس بن إسحاق عن يزيد بن أبي مریم قال : مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة ؛ فقال عمر : صدقت . حدثني يعقوب ، أنبأنا ابن علية ، أنبأنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر رضي الله عنه قال لمعاذ : ما قوام هذا الأمر ؟ فذكر نحوه .

وقوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه ، وأمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم ، أي تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ﴾ الآية ؛ فاهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة ، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم في مستدرکه أنه سئل رسول الله ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وَإِذْ أَسَّ النَّاسُ ضُرُوعَهُمْ مُّشْبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَانُ قَوْمِهِمْ مِنْهُمْ يَشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَسْتَعْمِقُوا سُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهِيَ تَكْتُمُ يَا كَانُودٍ يَنْشُرُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يُمَاقِدَتِ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَنْقُطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الإضطراب يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الإختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناكم ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم ، ولأم التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك ، ثم توعدهم بقوله ﴿ فسوف تعلمون ﴾ قال بعضهم والله لو توعدي حارس درب لحقت منه ، فكيف والتواعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون ؟ ثم قال تعالى منكرًا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا آذنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء . كما ثبت في الصحيح وعجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٨﴾  
 وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّا لِّرَبْوَاتٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا الْبَشَرُ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ  
 ﴿٢٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ تُعَرِّزُكُمْ تُعَرِّمُكُمْ تُعَرِّمُكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مَن شَاءَ سُبْحٰنَهُ  
 وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى أمراً بإعطاء «ذي القربى حقه» أي من البر والصلة ، «والمسكين» وهو الذي لا شيء له يتفق عليه أو له شيء لا يقوم بكفائته ، «وابن السبيل» وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره ، «ذلك خير للذين يريدون وجه الله» أي النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى ، «وأولئك هم المفلحون» أي في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله» أي من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله ، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقناة وعكرمة ومحمد بن كعب والسعي ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ؛ إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : «ولا تمنن تستكثر» أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه .

وقال ابن عباس : الربا ربا ان : فربا لا يصح ، يعني ربا البيع ؟ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها ؛ وأضعافها ؛ ثم تلا هذه الآية «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله» وإنما الثواب عند الله في الزكاة ، ولهذا قال تعالى : «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء . كما جاء في الصحيح «وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيريها لصاحبها ، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير الثمرة أعظم من أحد» .

وقوله عز وجل : «الله الذي خلقكم ثم رزقكم» أي هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوة ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملك والمكاسب . كما قال الإمام أحد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن سلام بن شرحبيل عن حبة وسواء ابني خالد قالوا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعانه ، فقال «لا تياسا من الرزق ما تهزئت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل» .

وقوله تعالى : «ثم يميتكم» أي بعد هذه الحياة ، «ثم يحييكم» أي يوم القيامة . وقوله تعالى : «هل من شركائكم» أي الذين تعبدونهم من دون الله «من يفعل من ذلكم من شيء ؟» أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يعث الخلائق يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كله «سبحانه وتعالى عما يشركون» أي تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم : المراد بالبر ههنا الفيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار ، والقرى ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع «ظهر الفساد» يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه ؛ رواه ابن أبي حاتم ؛ وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقري عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد «ظهر الفساد في البر والبحر» قال : فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا . وقال عطاء الخراساني : المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه

الأكثرين ؛ ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة : إن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة ، وكتب إليه ببحره ، يعني ببلده ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسياء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود ولقد يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السيأ والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها ، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض : أخرجي بركتك ، فياكل من الرمانه الغنم من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا محمد والحسين قالا : حدثنا عوف عن أبي مخمذ قال : وجد رجل في زمان زياد أو ابن زياد ، صرة فيها حب ، يعني من بر ، أمثال النوى مكتوب فيها : هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك ، وفيه نظر . وقوله تعالى : ﴿لِيذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية ، أي يتلهم بنقص الأموال والآنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن المعاصي ، كما قال تعالى : ﴿وَيَلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

فَأَقْرَجَكَ لِلَّذِينَ الْقَيْمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ

صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الإستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿فَأَقْرَجَكَ لِلَّذِينَ الْقَيْمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ﴾ أي يتفرون ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ، ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ، أي يجازيمهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يبور .

وَمَنْ آيَنَّهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمة مجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ﴾ أي في البحر ، وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي في التجارات والمعاش والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذب كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا بهم من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هو حق أوجه على نفسه

الكرامة تكراً وتفضلاً ، كقوله تعالى : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا موسى بن أعين عن ليث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ .

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْطُرُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْهَوْدَجَ يُخْرَجُ مِنْ

خَلِيلِهِ إِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ

﴿١٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٢١﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء ، فقال تعالى : ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿فيسطه في السماء كيف يشاء﴾ أي يمدّه فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئ سحابة ترى في رأي العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر نقلاً مملوءة ، كما قال تعالى : ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً نقلاً سقناه لبلد ميت - إلى قوله - كذلك تخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ وكذلك قال مهنا ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا﴾ قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة : يعني قطعاً . وقال غيره : متراكباً ، كما قاله الضحاك . وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهماً ثقیلاً قريباً من الأرض .

وقوله تعالى : ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فتري المطر وهو القطر ، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر ، كانوا قانطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعا عظيماً ، وقد اختلف النحاة في قوله ﴿من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ فقال ابن جرير : هو تأكيد ، وحكاة عن بعض أهل العربية . وقال آخرون : من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله ، أي الإنزال لمبلسين ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ؛ ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت ، فترقبوه في إبانته ، فتأخر ، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط ، فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج هبيج ، ولهذا قال تعالى : ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله﴾ يعني المطر ﴿كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفريقها وتمزيقها فقال تعالى : ﴿إن ذلك لمحيم الموتى﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿إنه على كل شيء قدير﴾ ثم قال تعالى : ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾ يقول تعالى : ﴿ولئن أرسلنا ريحاً﴾ يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه ، فرأوه مصفراً ، أي قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده ، أي بعد هذا الحال ، يكفرون ، أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كقوله تعالى : ﴿أفرأيتم ما ترحثون - إلى قوله - بل نحن محرمون﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ، حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبيد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عذاب ، فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ؛ وأما العذاب : فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإذا شاء سبحانه وتعالى بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحاً للسحاب تلقحه بحمله الماء ، كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقياً ، وأودعه عذاباً أليماً وجعله نعمة على من يشاء من عباده ، فجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه ، والرياح مختلفة في مهاجها : صبا وديبور ، وجنوب وشمال ، وفي منفعتها : تأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تحففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيبه وتصله ، وأخرى توهنه وتضعفه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا ابن عبيد الله بن أخي بن وهب ، حدثنا عمي ، حدثنا عبد الله بن عياش ، حدثني عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصديقي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ «الريح مسخرة في الثانية - يعني الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً ، فقال : يا رب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى : لا إذا تكفأ الأرض ومن عليها ، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ، فهي التي قال الله في كتابه ﴿ ما تدر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم ﴾ هذا حديث غريب ، ورفعته منكراً ، والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعْتُمْ إِلَّا  
مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعيهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتل الذين القوا في قلب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون» وتأولته عائشة على أنه قال «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق» . وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقيماً وتوبيخاً ونقمة .

والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما رواه من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً «ما من أحد ير بغير أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام» وثبت عنه ﷺ «لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من مخاطبونه فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المردود والجهاد ، والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستشير ، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده ، إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم» .

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إذا مر رجل بقبر يعرفه فسلم عليه ، رد عليه السلام ، وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بستين ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا والله في روضة من رياض الجنة ، وأنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فتتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيئات ، قد بليت الأجسام ، وإنما تتلقى الأرواح ، قال : قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس ! قال : قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

قال : وحدثنا محمد بن الحسين ، حدثنا بكر بن محمد ، حدثنا حسن القصاب قال : كنت أغدوم مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى تأتي أهل الجبان ، فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال : بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبلها ويوماً بعدها . قال : حدثنا محمد ، حدثنا عبد العزيز بن أبيان ، قال : حدثنا سفيان الثوري قال : بلغني عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي التياح يقول : كان مطرف يغدو ، فإذا كان يوم الجمعة

أدلى ، قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه ، فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون سلام عليكم ؛ حدثني محمد بن الحسن ، حدثنا يحيى بن أبي بكر ، حدثنا الفضل بن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت آتي قبره في كل يوم ، ثم قصرت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنني أتيت يوماً ، فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عياني فتمت ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج ، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنني بكيت لما رأيته قال : يا بني ما أبطأ بك عني ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيتي ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك ، قال : فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

حدثني محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام ، حدثنا عثمان بن سويد الطفاوي قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخري وذخيرتي من عليه اعتادي في حياتي وبعد موتي لا تخذلني عند الموت ولا توحشني ، قال : فماتت فكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم في منامي ، فقلت لها : يا أمي كيف أنت ؟ قالت : أي بني إن للموت لكربة شديدة ، وإنني بحمد الله لنفي برزخ محمود يفرش فيه الريحان ، وتتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور ، فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، قلت : وما هي ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا ، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لي يا راهبة هذا ابنك ، قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات .

حدثني محمد ، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور ، قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان ، فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أسمى وقف على المقابر فقال : أنس الله وحشتكم ورحم غريبتكم ، وتجاوز عن مسيتكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأسميت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلي ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاءوني ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعوها ، قال : قلت فإني أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد ، وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك : حدثني ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الخواريزي قال : حدثنا محمد أخي قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظمي ، قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك ، فبكي لإبراهيم حتى أخضل لحيتي . قال ابن أبي الدنيا : وحدثني محمد بن الحسين ، حدثني خالد بن عمرو الأموي ، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفري قال : كانت لي شرة سمجة ، فمات أبي فنتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيماء زلة ، فرأيت أبي في المنام ، فقال : أي بني ما كان أشد فرحاً بك وأعمالك تعرض علينا ، فنشبهها بأعمال الصالحين ، فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياة شديداً ، فلا تخزني فيمن حولي من الأموات ؛ قال : فكنت أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر وكان جاراً لي بالكوفة : أسألك إجابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين ويا هادي المضلين ، ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة . وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله . وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

بینه تعالیٰ علی تنقل الإنسان فی أطوار الخلق حالاً بعد حال ، فاصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة ، ثم یصیر عظاماً ، ثم تکی العظام لحمًا ، وینفخ فیہ الروح ، ثم ینخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوی ، ثم یشب قليلاً قليلاً حتى یكون صغيراً ، ثم حدثاً ثم مراهقاً ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم یشرع فی النقص فيکتهل ثم یشیخ ثم یرم ، وهو الضعف بعد القوة ؛ فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشیب اللمة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالیٰ : ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء﴾ أي یفعل ما یشاء ویصرف فی عبیده بما یرید ﴿وهو العليم القدير﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن فضيل بن يزيد ، حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي قال : قرأت علی ابن عمر ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً﴾ فقال ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً﴾ ثم قال : قرأت علی رسول الله ﷺ كما قرأت علی ، فأخذ علی كما أخذت علیك ، ورواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث فضيل ، ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبي سعيد بنحوه .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالیٰ عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فعنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال الله تعالیٰ : ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴿أي فیرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لم حين يملفون ما لبثوا غير ساعة﴾ لقد لبثتم في كتاب الله ﴿أي في كتاب الأعمال﴾ إلى يوم البعث ﴿أي من يوم خلقتهم إلى أن بعثتم﴾ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴿قال الله تعالیٰ : ﴿فيومئذ﴾ أي يوم القيامة﴾ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، أي اعتذارهم عما فعلوا ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا ، كما قال تعالیٰ : ﴿وإن يستعتبوا فإياهم من المعتبين﴾ .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

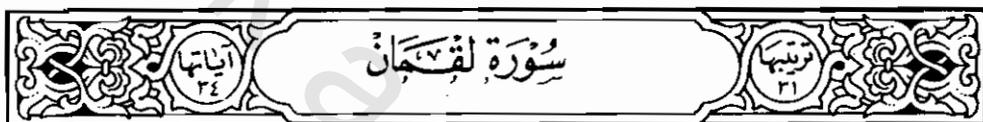
يقول تعالیٰ : ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي قد بينا لهم الحق ، ووضحنا لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي لورأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالیٰ : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿ولهذا قال ههنا﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله تعالیٰ منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ولا يستخفئك الذين لا يوقنون﴾ أي بل اثبت علی ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيها سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه . قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة ، فقال : ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأنصت له علي حتى فهم ما قال ، فأجابوه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يوقنون﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال ؛ حدثنا وكيع ؛ حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبي زرعة عن علي بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر ، فقال ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ .

[طريق أخرى] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد ، أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال : صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر ، فناداه رجل من الخوارج ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ .

ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير ، سمعت شيبان بن روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ ، صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم ، فلما انصرف قال وإنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء وهذا إسناد حسن ، ومتن حسن ، وفيه سر عجيب ، ونبا غريب ، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوءه من اتهم به ، فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام . آخر تفسير سورة الروم . والله الحمد والمنة .



### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَصِلُونَ الصَّلَاةَ وَيُوْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراعوا به ، ولا أرادوا جزاءاً من الناس ولا شكوراً ، فمن فعل ذلك كذلك ، فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

وَإِذْ أَنْتَ عَلَى عِلْتِهِ أَيْتُنَا وَلَكِنَّ مَسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَ آيَاتِنَا إِلَهًا

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يتدلون بكتاب الله ويتتبعون بسماعه ، كما قال تعالى : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ الآية ؛ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع الزامير والغناء بالألحان والآلات الطرب ؛ كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ قال : هو والله الغناء .